ظاهرة التكديس عند مالك بن نبي

أ. بشير قلاتي

جامعة الأمير عبد القادر

مقدمة

لا يحتاج مني الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله- إلى تقريظ. فالرجل يعرف قيمته كل من كانت له صلة فكريّة بواقع التردّي الحضاري الذي تعيشه الأمة الإسلامية منذ أمد بعيد. ويجدر بي أن ألاحظ ظاهرة التنطّع الفكري الذي يقيس الفكرة باسم صاحبها. ومن ثم تتحوّل الفكرة من كونها مجرّدة إلى كونها مجسّدة...ولا يخفى ما لهذه الظاهرة من آثار خطيرة في الساحة الفكريّة...بما يحدث جرّاها من تعصّب أعمى وتنطّع أصم...

إن الحديث عن هذا الرجل هو حديث عن أحد أهم مفكري العالم الإسلامي الذين اشتغلوا بالنقد الذاتي في مجال الفقه الحضاري بمنهج علمي رصين يعتمد التحليل والتركيب. انطلاقا من ملاحظة دقيقة للوقائع والأحداث. بعيدا عن أسلوب الخطابة العاطفي الذي كثيرا ما تحكمه "عقدة التسامي" التي طغت على أدبيات الفكر القومي. فحالت دون الرؤية الواضحة. فضلّت وأضلّت....معتمدة عبارات مخدرة وضعت على أعيننا غشاوة حتى لا نرى مشاكلنا على حقيقتها. وساهم في ذلك الاستشراق بقسميه القادح والمادح. ..الأول ليلهينا عن فهم حقيقة وضعنا وطبيعة مشاكلنا بفتحه لجبهات قتال وهميّة. أما الثاني فحتى ينفخ في غرورنا. فنستسلم للأحلام وننام على الأوهام. ..فلا ننتبه إلى أصل الداء الكامن في أنفسنا. فننشغل بذلك بتمجيد ماضينا عن إدراك واقعنا وتلمّس مستقبلنا[1] ..ولابد من الإشارة إلى أن النقد الذاتي -كضرورة في مشروعنا

(1) -مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط1، الجزائر، دمشق:دار الفكر، 1412/1991م، ص171، 17

الحضاري-لا يعني الوقوع فيما يسمّيه البعض ب"جلد الذات" الذي قد يفقدنا الثقة بالنفس فيسلمنا ذلك إلى اليأس و القنوط فنقع بذلك في مأزق نفسي لا يقل خطرا. يسمى "ذهان الصعوبة" الذي يشل التفكير ويقتل الفاعليّة ...والأمر أخيرا لا يعدو تشخيصا لواقع تخلّف الأمة وتحليلا لبنى فكريّة مختلّة بسبر أبعاد الخلل. حتى يتسنى لنا مواجهة المشكلة على حقيقتها. وهو ما جَهد الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله-في بيانه وتحليله...

تحليل ظاهرة التكديس في المجتمع الإسلامي:

انتهى مالك بن نبي إلى أن مشكلة كل شعب هي مشكلة حضارته. وبذلك فإن كل تفكير في مشكلة الحضارة تفكير في مشكلة الثقافة ؛باعتبار أن الإنسان رهين دائما بثقافته [1]. و يطرح مالك بن نبي مشكلة الثقافة من الوجهة الديناميكيّة. وتستند إلى العلاقات الداخليّة بين مقاييس العمل الثابتة بين العوالم الثلاث: عالم الأشياء. الأشخاص و الأفكار..وقد يحدث في لحظة تاريخيّة ما اختلال في التوازن بين أحد هذه العوالم. يعكس حالة إفراط أو تفريط في جانب على حساب جانب آخر. وهو ما يفقد الحضارة حركيّتها المنتظمة المتوازنة. ورغم أن كل مجتمع يواجه حتما حالات من عدم التوازن. فما ينقصنا نحن -كمجتمع متخلف-أن حركة النهضة لم يخطط لها بشكل دقيق بسبب غياب التحليل و النقد اللازمين. إذ اكتفى رجالها بالتمجيد والمديح؛وهو ما أدى إلى ضياع الجهود وتبديد الطاقات؛ لعدم التماسك في الأفكار وطغيان الأشياء أو طغيان الأشخاص[2]. وهذا ما جعل حركة النهضة منذ جمال الدين الأفغاني-الذي يعترف له بالفضل الكبير في إيقاظ الجموع النائمة-تكتفي بوصف المرض -التخلف والضعف-ولا تعمل على تشخيص حقيقته. وعكفت بالتالي على علاج الأعراض وغفلت عن أصل الداء. مما زاد في تفاقم الأزمة. أما موقف العالم الإسلامي فبقي مبهوتا. إذ تراءت له حضارة

(1) -مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ط4، دمشق: دار الفكر، 1413ه/1984م، ص145

2-مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ط4، دمشق:دار الفكر، 1413ه/1984م، ص145

عملاقة أخذت تلوّح له بوسائل شفائه -تمويها-. فما كان منه إلا أن دخل صيدليّتها طالبا للشفاء-وهو جاهل بحقيقة مرضه-...فاخذ يتعاطى هنا حبّة ضد الجهل. ويأخذ هناك قرصا ضدّ الاستعمار. ...وفي مكان آخر عقّارا كي يشفى من الفقر[1]...وهكذا ازداد الأمر سوءا واتسع الخرق على الراقع إذ طغت نزعة الشيئيّة. بتقدير الأمور تقديرا كميّا ووزنها بميزان الملموس...ويمثّل لذلك بمقولة السيّد جمال الدين الأفغاني "لو أن جميع الهنود يبصقون معا لأغرقوا الجزر البريطانيّة في بحر من اللعاب ..!!

إن للعالم الثقافي ديناميكيّته التي تتحدّد بعلاقات العوالم الثلاث...وهي ما تفتأ تتصارع حول السلطة فيه. ..وفي مجتمع متخلّف يُحسم الصّراع لصالح عالم الأشياء مما يبرز ظاهرة"التّكديس" كظاهرة مرضيّة يلجأ إليها المجتمع المتخلّف كعلاج سطحي لمشكلة حضاريّة معقّدة[2]....ثم جاءت الصدمة الكبرى. صدمة المجتمع الإسلامي أمام مارد الحضارة الغربيّة. فكشف عن الخلل الخطير الذي أصاب المجتمع الإسلامي فعجز عن تخطّي ظواهر أشياء هذه الحضارة..فبعد أن حكم بفائدة أشياء هذا العملاق - جملةً - مما تسبب في طمس ملكة النقد عنده مما أدى به إلى الاكتفاء بمعرفة كيفيّة الحصول على أشيائه المبهرة بدل البحث في كيفيّة صنعها. وهكذا "أخذ بالأشكال دون أن يعلم فحواها. فادى ذلك إلى تطوّر لم يتم وسائله بل زاد من حاجياته..."[3]. وقد كان لذلك نتائج خطيرة منها فشل جهودنا للاستفادة من بعثاتنا الطلابيّة للخارج؛حيث راح الطالب عندنا _محكوم بفكر إنسان ما بعد الموحدين-يكدّس معلومات ومعارف سطحيّة دون فقه حقيقي بجوهرها..

1 -، مالك بن نبي، شروط النهضة د، ط دمشق:دار الفكر، 1406/1986م، ص ص41، 42
2 -مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ص86
3 -مالك بن نبي، مستقبل الإسلام، ترجمة شعبان بركات، بيروت:المكتبة العصريّة، صص50، 51

يعمد مالك بن نبي إلى توظيف معطيات علم النفس التربوي في مراحل تدرّج نمو إدراك الطفل. حيث يبدأ أولا بإدراك عالم الأشياء حيث يبدأ في تمييز أنَاه الجسماني. حين يبدأ في تأمل يديه واللعبة التي يمسكها ...ثمّ يبدأ في إدراك عالم الأشخاص بالتعرف على أبيه و أمه ..ولما يزداد نموّه يبدأ في إدراك عالم الأفكار ...وفي انتقاله إلى عالم الأفكار يضع قدميه في محيطه الثقافي. مما ينعكس على شخصيته وحتى على مظاهره الجسديّة. ...أما في مرحلة الشيخوخة فتنعكس الآية حين يعود قافلا من عالم الأفكار إلى عالم الأشخاص إلى عالم الأشياء. وهذا -حسب ما يراه- من معاني قوله تعالى: { الله الذي خلقكم من ضعفٍ. ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة. ثمّ جعل من بعد قوّةٍ ضعفاً وشيبةً. يخلق ما يشاء وهو العليم القدير} (الروم/54.)

وهذه العوالم تنسحب على المجتمع أيضا. رغم تشابكها -لتعقّد عالمها الثقافي -إذ أن التخلّف الاجتماعي مقرون دائما بنقص في عالم الأفكار. ويمكن أن يقابل هذه المراحل الثلاث التاريخيّة التي مر بها المجتمع الإسلامي :مرحلة قبل التحضّر. مرحلة التحضر ثم مرحلة ما بعد التحضر.

- **مرحلة ما قبل التحضر**: وهي مرحلة المجتمع الجاهلي. حيث الفقر في عالم الأفكار: إذ لا يعدو كل زاده منه بعض القصائد والخطب....فهو عموما مجتمع الشيء.

- **مرحلة التحضر**: حيث يتكوّن المجتمع الإسلامي بظهور الفكرة الدينيّة وبزوغ إشعاع الروح...فقد تمثل عالم الأشخاص الفكرة و تفاعلوا معها فأخضعوا عالم الأشياء. حيث مزجت بين إنسان. التراب والزمن. فتوسّعت دائرة هذه العوالم الثلاث في مرحلة استقرار ذهبي في العصرين الأموي ثم العباسي .

- مرحلة ما بعد التحضّر: تبدأ بعد عصر الموحدين (تبدأ حوالي عام 667هـ) حيث تتضاءل دفعة الروح وسلطة العقل لصالح سلطة الغريزة. مما يرتد بالمجتمع إلى عالم الأشخاص ثم عالم الأشياء...وهي مرحلة مازالت مستمرة. حيث المجتمع الإسلامي في تقهقر مستمر[1].

- تقييم الظاهرة:

مما سبق تبرز ظاهرة "التكديس"-عند مالك بن نبي -كإحدى سمات مجتمع خرج من حضارته. فانحصر تفكيره في عالم الأشياء. فاخذ في استيرادها وجمعها ضنّا أنه بذلك يصنع حضارة، في حين أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها لا العكس. فهي أولا وقبل كل شيء بناء وهندسة وليست جمعا وركما...ولا جرم فالفكر الإسلامي أضحى عاجزا عن إدراك حقيقة الظواهر. وهو ما قصر به عن إدراك قيمة القرآن. فاكتفى المسلم باستظهاره وترديده؛ ففقدت آياته إشعاعها في نفسه. ففقدت. تبعا لذلك. وظيفتها الاجتماعيّة وتأثيرها في السلوك...وعندما اصطدم بمنتجات الحضارة الغربيّة لم يكلّف نفسه عناء البحث في كيفيّة إبداع هذه الأشياء ليعمل على إبداع مثلها -كما فعل قرينه الياباني- بل قنع بمعرفة طرق الحصول عليها فوقع بذلك في الظاهرة الآفة وهي ظاهرة التكديس مما أدى إلى تطور في الكم. و زاد في كميّة حاجاته دون أن يعمل على زيادة وسائل إشباعها. فانتشر الغرام بكلّ مستحدث..وجَهدَ الجميع في الحصول عليه[2]

ومن خلال هذا الفهم العميق والملاحظة الدقيقة لواقع المجتمع الإسلامي يرجع مالك بن نبي هذا الانحراف السلوكي إلى النظرة القاصرة التي أصابت النخبة المتعلّمة. فأصبحت أسيرة السطحيّة الفكريّة في رؤية حضارة العصر التي وضعت على أعينها غشاوة فأضحت لا ترى إلا ما ينسجم مع شهواتها و نزواتها.

---

(1) -مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص ص 29...39

(2) -وجهة العالم الإسلامي، ص ص 65، 67

يعمد مالك بن نبي إلى توظيف معطيات علم النفس التربوي في مراحل تدرّج نمو إدراك الطفل. حيث يبدأ أولا بإدراك عالم الأشياء حيث يبدأ في تمييز أنّاه الجسماني. حين يبدأ في تأمل يديه واللعبة التي يمسكها ...ثمّ يبدأ في إدراك عالم الأشخاص بالتعرف على أبيه و أمه ..ولما يزداد نموّه يبدأ في إدراك عالم الأفكار ...وفي انتقاله إلى عالم الأفكار يضع قدميه في محيطه الثقافي. مما ينعكس على شخصيته وحتى على مظاهره الجسديّة. ...أما في مرحلة الشيخوخة فتنعكس الآية حين يعود قافلا من عالم الأفكار إلى عالم الأشخاص إلى عالم الأشياء. وهذا -حسب ما يراه- من معاني قوله تعالى: { الله الذي خلقكم من ضعفٍ. ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة. ثمّ جعل من بعد قوّةٍ ضعفاً وشيبةً. يخلق ما يشاء وهو العليم القدير} (الروم/54.)

وهذه العوالم تنسحب على المجتمع أيضا. رغم تشابكها -لتعقّد عالمها الثقافي -إذ أن التخلّف الاجتماعي مقرون دائما بنقص في عالم الأفكار. ويمكن أن يقابل هذه المراحل الثلاث التاريخيّة التي مر بها المجتمع الإسلامي :مرحلة قبل التحضّر. مرحلة التحضر ثم مرحلة ما بعد التحضر.

- **مرحلة ما قبل التحضر**: وهي مرحلة المجتمع الجاهلي. حيث الفقر في عالم الأفكار: إذ لا يعدو كل زاده منه بعض القصائد والخطب....فهو عموما مجتمع الشيء.

- **مرحلة التحضر**: حيث يتكوّن المجتمع الإسلامي بظهور الفكرة الدينيّة وبزوغ إشعاع الروح...فقد تمثل عالم الأشخاص الفكرة و تفاعلوا معها فأخضعوا عالم الأشياء. حيث مزجت بين إنسان. التراب والزمن. فتوسّعت دائرة هذه العوالم الثلاث في مرحلة استقرار ذهبي في العصرين الأموي ثم العباسي .

- مرحلة ما بعد التحضّر: تبدأ بعد عصر الموحدين (تبدأ حوالي عام 667هـ) حيث تتضاءل دفعة الروح وسلطة العقل لصالح سلطة الغريزة. مما يرتد بالمجتمع إلى عالم الأشخاص ثم عالم الأشياء...وهي مرحلة مازالت مستمرة. حيث المجتمع الإسلامي في تقهقر مستمر[1].

- تقييم الظاهرة:

مما سبق تبرز ظاهرة "التكديس"-عند مالك بن نبي -كإحدى سمات مجتمع خرج من حضارته. فانحصر تفكيره في عالم الأشياء. فاخذ في استيرادها وجمعها ضنّا أنه بذلك يصنع حضارة، في حين أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها لا العكس. فهي أولا وقبل كل شيء بناء وهندسة وليست جمعا وركما...ولا جرم فالفكر الإسلامي أضحى عاجزا عن إدراك حقيقة الظواهر، وهو ما قصر به عن إدراك قيمة القرآن. فاكتفى المسلم باستظهاره وترديده؛ ففقدت آياته إشعاعها في نفسه. ففقدت. تبعا لذلك. وظيفتها الاجتماعيّة وتأثيرها في السلوك...وعندما اصطدم بمنتجات الحضارة الغربيّة لم يكلّف نفسه عناء البحث في كيفيّة إبداع هذه الأشياء ليعمل على إبداع مثلها -كما فعل قرينه الياباني- بل قنع بمعرفة طرق الحصول عليها فوقع بذلك في الظاهرة الآفة وهي ظاهرة التكديس مما أدى إلى تطور في الكم. و زاد في كميّة حاجاته دون أن يعمل على زيادة وسائل إشباعها. فانتشر الغرام بكلّ مستحدث..وجَهدَ الجميع في الحصول عليه[2]

ومن خلال هذا الفهم العميق والملاحظة الدقيقة لواقع المجتمع الإسلامي يرجع مالك بن نبي هذا الانحراف السلوكي إلى النظرة القاصرة التي أصابت النخبة المتعلّمة. فأصبحت أسيرة السطحيّة الفكريّة في رؤية حضارة العصر التي وضعت على أعينها غشاوة فأضحت لا ترى إلا ما ينسجم مع شهواتها و نزواتها.

---

(1) -مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص ص 29...39

(2) -وجهة العالم الإسلامي، ص ص 65، 67

كظاهرة عمياء غير واعية. ورم اجتماعي خبيث لا يعدو قول الشاعر الحكيم مصحّحا نظر ممدوحه: أعيذها نظرات منك صادقة ❁ أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

سبيل علاج الظاهرة:

من خلال دراسته للتحوّلات التاريخيّة للمجتمع الإسلامي. يلاحظ مالك بن نبي كيف واجه هذا المجتمع مشكلة الحاجة بحكمة وتبصّر حضاري دون أن يلجأ لإشباعها إلى منهج التكديس كما نفعل نحن اليوم. بل عمد إلى إمكاناته المتاحة البسيطة فاستخرج منها أقصى ما يمكن من الفائدة. وهل تعني الفاعليّة اكثر من ذلك؟...

لقد طرحت الحاجة في المجتمع الإسلامي في عهوده الأولى إلى وسيلة يُدعى بها إلى الصلاة. وطرحت فكرة اتخاذ النواقيس كما يفعل النصارى...لكن الأمر استقر بتلبية الحاجة باستخدام شيء ذاتي. وهو صوت الإنسان. فكان الأذان...وبذلك نجح المسلمون -وبطريقة حضاريّة- في تلبيّة الحاجة بإبداع وسيلتها البسيطة دون أن يضطرّوا إلى استيراد النواقيس أو تصنيعها. ولم تكن ظروف المجتمع الوليد بإقامة مثل هذه الصناعة[1]...وكأني بالأستاذ مالك بن نبي يقول لنا. هذا هو الطريق الصحيح في تلبية حاجاتنا. حتى نحقق فعاليتنا في التاريخ. إذ علينا أن نتعلّم كيف نشبع الحاجة بإبداع الوسيلة. أي بفعالية لا باتكاليّة ...رغم أنه لا ينفي ضرورة استيراد بعض أشياء الحضارة. لكن بشرط ترشيد العمليّة حتّى لا تنقلب تكديسا مرضيا. فمسألة التنمية تحتاج -لخطورتها -إلى توفير الإمكانات وادخار الطاقات...فالقضيّة إن لم تضبط سوف تتحوّل إلى نوع من التصرّف الأحمق الذي يدعو في بعض الحيان إلى السخرية. كأن تعمل بعض سيدات البلاد العربيّة-ذات المناخ الحار - على استيراد لباس الفرو باهض الثمن من أوروبا !. لمجرد تقليد سيدات البيت لأوروبي الأورستقراطيّات. بقصد إشباع حاجة النفخ الفارغ...[2]

---

(1)- مستقبل الإسلام، ص64

(2) -تأملات، ص172

إن ظاهرة التكديس في ابسط مظاهرها ظاهرة اقتصادية. لكنها في بعدها الثقافي-قضيّة ثقافيّة. وفي الإطار العام مشكلة حضارة. وتحتاج منا إلى معالجة أصل الداء باتباع ما يسميه مالك بن نبي (الاستثمار الاجتماعي) بدلا عن مجرد(الاستثمار المالي). ...ولا يتم ذلك إلا بتوجيه الثقافة أي بحل مشكلة الإنسان وتحقيق شروط انسجامه مع التاريخ. وعلى هذا الأساس تطرح مشكلة التنمية. ولذا نراه يؤكد على أن التنمية لا تشترى من الخارج؛ لتعلّقها بقيم أخلاقية واجتماعيّة لا يمكن استيرادها...وعلى المجتمع أن يلدها.[1]

إن كافة مظاهر الأزمة الاقتصاديّة (ومنها أزمة البطالة) لا تعني عند مالك بن نبي - في ظروف المجتمع الإسلامي-إلا أزمة في العقول المعطّلة. فالمشكلة في ثقافتنا. في جهاز تفكيرنا الذي اختلّت موازينه بحلول الشيء أو الشخص محل الفكرة. وعلينا تصحيح الوضع برده إلى نصابه. وهو ما يحتاج منا إلى وضع برنامج تربوي لتحقيق التجدّد النفسي الداخلي[2]. حتى نعيد لعالم الأفكار مكانته في سلّم القيم الاجتماعية. أي نعطي للثقافة بُعد الفكرة. وتفعيل الفكرة وإعطائها حركة ناشطة لتحدث التوتّر اللازم في النفس. وهذه العمليّة التغييريّة التربويّة كفيلة بإحداث التصحيح المطلوب في وضع الشيء في موضعه الصحيح. كوسيلة لا كغاية. وخاصة في مرحلة الصراع الحضاري في العالم اليوم والتي نحتاج فيها إلى أدنى ما يمكن أن يضعنا على الخط الصحيح في مسيرتنا التاريخية ...حتى نقرّب الفجوة التي ما تفتأ تتّسع بيننا وبين الركب الحضاري العالمي.

---

(1) -مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ط1، دمشق:دار الفكر، 1398هـ/1978م ص ص139، 171، 172

(2) يقصد الأستاذ مالك بالتجدّد تحويل الفكرة الدينية إلى قيمة ناشطة حية في ضمير المسلم بحيث تدفعه إلى الحركة المنتجة، خلافا للتجديد الذي يتعلق-في نظره-بإصلاح النظم والمناهج الفكريّة.